

## الفصل السادس عشر

### [ صدمة قاسية ]

طال بي الوقت وأنا جالسة على ذاك الفرع أراقب الظلام الدامس من حولي إلا من النور الذي يصدر عن كشافات المباني الإدارية.. وهذا أفضل ما في الأمر، إذ يمكنني مراقبة كل ما يجري في الجانب المواجه لي من الساحة بوضوح تام.. مرت مدة طويلة منذ رأيت مركبة أمجد وأدهم تدخل من البوابة دون صعوبات.. ورأيتهما يسيران في الساحة ليدلفا أحد مبانيها دون عسر كبير.. وبعدها عمّ الموقع سكون تام جعلني أتململ في جلستي وأنا أتأفف من تعبتي.. وبعد مدة طويلة، انفجر الوضع بشكل فعليّ في الساحة مع صفارات الإنذار التي وصلني صوتها بوضوح وسط صمت المكان.. ثم بدأ بعض الحراس المتواجدون في الساحة بالتراخض نحو أحد المباني حاملين أسلحتهم..

تحفزت في مكاني وأنا أنظر للموقع بتوتر شديد.. لقد كشف أمرهم، لكن هل نجحوا في مسعاهم أم لا؟ والأهم من هذا.. هل سيتمكنون من الهرب بدون خسائر أم لا؟.. تبا.. بودي لو كنت هناك الآن، رغم أنني قد أكون بلا فائدة لهم.. لكنني لا أحب دقائق الانتظار الصعبة هذه..

رأيت عندها أدهم يركض خارجاً من خلف ذلك المبنى مستغلاً قلة من بقي من الحراس في الساحة حتى قفز في المركبة.. غلبني قلق على أمجد حتى رأته يخرج من مخبئه خلف الصناديق ويركض بدوره نحو المركبة ويقفز فيها، فأسرع أدهم يقودها بشيء من التهور متقدماً نحو البوابة ليتجاوزها بعد أن ارتطم بطرفي البوابة.. وقاد المركبة عبر المساحات الصخرية قادماً تجاه الغابة.. شعرت بشيء من الراحة لنجاتهما وأنا أظن أخطر ما في العملية قد انتهى، وإن خاب أمني برؤيتهما وحيدين مما يعني فشلهما في إنقاذ عم أمجد.. لكن القلق عاد إليّ مع مرأى تلك المركبة التي شق نورها الظلام قادمة من الاتجاه الآخر، من المنجم كما يبدو، وركابها يبادلون أمجد الرصاص بغزارة..

من موقعي هذا كان من الصعب عليّ الوصول برصاصاتي للمركبة المهاجمة مما جعلني بغير فائدة وأنا أراقب الوضع بقلب واجف.. لذلك لكم أن تتخيلوا هلعي وأنا أرى جسد أمجد يقفز من المركبة ويسقط أرضاً متدحرجاً لمسافة قصيرة قبل أن يسكن تماماً.. ولم تلبث بعدها مركبة أدهم أن انفجر إطارها لتزحف على الصخور وتنقلب بعدها قريبة من الغابة..

نزلت من الشجرة بسرعة حتى منتصفها وقفزت متجاوزة المسافة الباقية، ثم شერთ سلاحتي وأنا أقف عند أطراف الغابة فأطلق الرصاص على الحراس في المركبة الأخرى التي توقفت قريباً.. لم أكن ذات مهارة في التصويب، لكن ما فعلته كان كافياً لردع الحراس عن الاقتراب من أدهم الذي نهض بعسر

من المركبة المنقلبة وركض تجاه الغابة دون إبطاء.. وحالما وصل إليّ جذبني من ذراعي لأُكف عن إطلاق النار وألحق به.. لكنني توقفت وصحت "إلى أنت تذهب؟.. يجب أن نستعيد أمجد" هتف "لا فائدة.. لنهرب قبل أن يصلوا.."

صحت من جديد "لا يمكن.. لنستعده الآن.. هذا أسهل من محاولة إنقاذه من المباني الإدارية فيما بعد"

وعدت أطلق الرصاص على الحراس الذين اقتربوا من جسد أمجد.. لكن أدهم عاد يجذبني بقوة وهو يصيح "لنبتعد من هنا.."

جذب سلاحني من يدي وأجبرني على اللحاق به بين أشجار الغابة وأنا أحاول التملص من قبضته القوية دون فائدة.. فصرخت بغضب "لماذا تفعل ذلك؟ كيف تتخلى عنه بهذه السهولة؟ هل خفت على حياتك لتتخلى عن رفيقك بسرعة؟"

وقف أدهم فجأة والتفت إليّ ليقول بحدة "لأنه مات.. أيرضيك هذا الجواب؟"

انتفضت لقوله وعينايت تتسعان، ثم صحت "مستحيل.. أنت تكذب" هز رأسه وأضاف وهو يغمض عينيه بقوة "لقد أصابوه إصابة قاتلة.. أنت بعيدة فلم تريه بشكل جيد أما أنا فمتأكد.. حتى لو استعدناه فلا نستطيع فعل شيء له الآن" صرخت بصدمة "أنت تكذب.."

لكنه لم يعلق وهو يقول بسخط "تباً لك يا أمجد.."

وعاد يجذبني لنواصل الهرب وأنا مذهولة أحاول تذكر ما رأيته.. نعم رأيتهم يصيبيونه.. نعم رأيته دماءه تلتطخ الأرض الصخرية وهو يتدحرج عليها.. نعم رأيته جسده هامداً بلا حراك.. لكن أن يكون قد مات؟.. أن يكون قد قتل؟.. هذا لا يمكن.. لا أستطيع تصديق هذا..

جذبت يدي بقوة وأنا أصيح بغضب "كل هذا بسببك أنت.."

نظر لي بدهشة، فقلت بغضب أشد "بسبب إصرارك على القيام بهذه العملية بسرعة.. أنت حثثته على عدم توخي الحذر والاندفاع في عملية فاشلة.. لقد مات بسببك"

قال أدهم مقطباً "وأنتِ عاونتني على هذا.."

ظللت أحرق فيه بغضب وأنا أحاول استيعاب ذلك.. وجدت الدموع تتدافع غصباً عني من عيني بشكل سبب لي ضيقاً شديداً.. فاندفعت في اتجاه آخر راكضة دون توقف ودون أن أعبأ بهتافه خلفي..

سمعتة يصيح "حمراء.. عودي.. لا تبتعدي وحيدة فهم يلحقون بنا.."

لكنه توقف لما سمع صوت خطوات خلفه، ولما ظهر الحراس الثلاث من بين الأشجار يتراكمون خلفه أسرع يركض في اتجاه بعيد عني وهو يقول بحلق "تباً لكل هذا.."

أما أنا، فلم أنتبه لطريقي وأنا أركض دون توقف وأكاد لا أرى ما أمامي جيداً بسبب الدموع.. وبعد ركض يائس توقفت وسط الأشجار الساكنة المظلمة، وركعت أرضاً دافئة وجهي في ركبتَيَّ وأنا أستسلم لنشجي المرّ مثيرة دهشة عقلي.. سمعته يقول لي بغير تصديق "أليس هذا من تدعين أنك لا تهتمين به؟ أليس هو من تحاولين الابتعاد عنه؟ لقد وفّر عليك بذل الجهد وها هو قد تنحّى من طريقك.. فلم البكاء؟"

بادره قلبي بالجواب قبل أن أجد في نفسي القدرة على ذلك "وما أدراك أنت أيها المغرور؟ إنها تحبه.. قد أحبته منذ زمن طويل، لكنك حاولت خداعها وإيهامها بعدم جدوى ذلك.. جعلتها تيأس وتتخلى عنه، والآن فقدته قبل أن يتبرعم حبها.. فهل يسعدك ذلك؟"

أجاب عقلي بحيرة "أردت أن أحميها، أن أجنبها عذاب الرفض والصدود.. فكيف تلومني على ذلك؟" قال قلبي بغضب "ألومك لأنك حرمتها منه قبل أن يحرمها القدر منه.. والآن ماذا بيدها غير البكاء؟ ماذا بيدها غير الحزن؟"

لوّحت بذراعي أطردهما بعيداً، واختليت بنفسي مستسلمة لحزني ولوعتي وألمي.. بكيت كما لم أبك من قبل.. بكيت مفرغة أطناناً من المرارة المعجونة بالصدمة والرفض.. لكن ما جدوى البكاء الآن؟..

\*\*\*\*\*

لم أعرف كم طال بي الوقت باكية، ولم أعرف كم بقيت بعدها ساهمة الفكر جالسة وحيدة في الغابة.. ظللت أحاول إقناع عقلي أنني أخطأت تفسير الأمر.. ربما لم يمت، وأنا أهول الأمر فقط.. لكن عقلي كان يقول لي في كل مرة بضجر "حتى متى تريدن خداع نفسك؟ هل تنتظرين قراءة نعيه في الجريدة حتى تقتنعي؟ يكفيك حزناً وانفعالات درامية.. لا أحد يستحق البكاء عليه.."

فكنت أشيح بوجهي بعيداً بغضب ممزوجة بصدمة.. إن لم أكن واهمة.. لم تختلط عليّ الرؤى ولم يرسم الظلام خيالات خادعة أمام عينيّ، وهو ما كنت أحاول إقناع نفسي به منذ فترة.. اقتحمت غصة حلقي وغامت عيناى بدموع لم تكد تتوقف عندما شعرت بقلبي يضع يده على كتفي قائلاً بإشفاق ممتزج بشيء من السخرية "ابكِ.. وهل تملكين إلا البكاء؟ لطالما شتمتني وأسكت صوتي كلما حاولت إقناعك بالحقيقة.. واتّبع عقلك الذي حاول خداعك.. فبم أفادك الآن؟"

نهضت فجأة لأسكته وقد عزمت على العودة للمخبأ.. لو بقيت معهما لوقت أطول فسأصاب بالجنون حتماً.. غالبت رجفة أعماقي وأنا أدفع نفسي للعودة بسرعة.. اجتزت الغابة بحذر خشية أن ألتقي بأحد الحراس، وقد كان حظي حسناً أن أحداً منهم لم يعثر عليّ، ثم ارتقيت الجبل رغم التعب الذي

شعرت به يتنامى في جسدي، وأخيراً دلفت المخبأ لأجد أدهم جالساً بتعب في جانب المكان وثيابه تحمل كمية لا بأس بها من الدماء بينما بسمة منزوية في جانب آخر تبكي بحرقة.. ولما رأيته أدهم قال بحدة "أين اختفيت أيتها الحمقاء؟ الحراس انتشروا في الغابة بحثاً عنا وكادوا يقبضون عليّ، وأنت تجدين الوقت ملائماً للابتعاد وحيدة؟"

لم أعبأ بغضبه وإن سألته بشيء من الهدوء "أنت مصاب؟"  
زفر بحنق وقال "الدماء ليست دمائي.."

لم أعلق بكلمة بينما نهضت بسمة وركضت نحوي فعانقتني بقوة وهي تبكي بدون توقف.. أهى تواسيني أم تريد مني مواساتها؟.. لم أكن أقدر على التفاعل معها أكثر من هذا فأبعدتها عني برفق وانزويت جانباً في المخبأ بصمت محاولة ألا أعود للبكاء من جديد.. ألا أسمح للحزن باحتلال عقلي من جديد.. لكن هيهات..

\*\*\*\*\*

مرت علينا عدة ساعات والصمت يسكننا ويغلف مشاعرنا.. غاب أدهم عنا فترة من الوقت ثم عاد إلينا مصراً على تغيير مخبئنا، إذ وجد مخبأً جديداً مناسباً.. وبعد إلحاح شديد منه أطعناه بصمت كالعادة فحملنا متاعنا القليل وتبعناه مستغلين الظلام من حولنا.. وفي سيرنا غمغمت بسمة والدموع تبلل رموشها الطويلة بشكل أبدي "ما الحاجة لتغيير المخبأ في هذه الظروف؟"  
قال أدهم دون أن ينظر إليها "الحيطة واجبة.."

كان رداً مقتضباً لا يفسر أي شيء.. لكننا لم نعلق وهو يقودنا عبر الجبل مسافة طويلة.. ظللت أتبعه بتلقائية وهدوء وأنا أغلف سريرتي الثائرة بجمودي الظاهري.. كان بي انفعال شديد لا يكاد يتيح لي فترة هدوء.. كنت أتذكر كل حوار دار بيني وبين أمجد، أتذكر كل الكلمات الجامدة الساخرة التي أرميها في وجهه، أتذكر كل معاملة سيئة تلقاها مني وأجلد نفسي بشعور الندم والمرارة.. لا ألومه لو اكتشفت أنه كان يكرهني.. بل يزيد ندمي معاملته اللطيفة الدائمة لي.. تذكرت إلحاحي بالقيام بتلك المهمة بدون الاهتمام بقلقه وجلدت نفسي بندم أكبر.. شعور كرهه سيطر عليّ ولم أجد ما يخفف عني انفعالاتي..

بعد استقرارنا في المخبأ، اختلقت أي عذر طراً لأذهني المنهك وانسللت خارجة لمسافة.. وهناك، بعيداً عن الأعين، انزويت متلفة بحزني ومرارتي ومحاطة بسكون زاد أحزاني.. وبين أفكارى المتدافعة، شعرت بيد توضع على كتفي بحنان.. ظننته خيال قلبي الذي لا أجد غيره يواسيني وهممت بطرده

كالعادة، لكنني صدمت برؤية وجه بسمة الذي تتوسطه عيناها الدامعتان، وسمعت همسها المتعاطف "لا تحزني يا حمراء.. أعلم مقدار ألمك لما جرى، لكنني أخشى عليك.."  
 أشحت بوجهي بعيداً ودموعي تتساقط من جديد دون أن أتعب نفسي بمسحها.. وجدتتها تحيطني بذراعيها وهي تهمس "آه يا فتاتي المسكينة.. ما الذي أستطيع فعله لأمحو ألمك هذا؟"  
 غمغمت بمرارة "وهل هذا مما يمكن محوه ببضع كلمات؟ إذن تخلص البشر من نصف آلامهم.."  
 صمتت بسمة وهي ترى دموعي تتدافع من جديد وأنا أهمس بألم "لطالما أدبته بأقوالي وأفعالي.. وإصراري على الاندفاع في تلك العملية بحمق كان أسوأ قرار اتخذته في حياتي.. وهذا ما يؤلني الآن.. لقد تسببت بموته بحمق شديد.."

شدت ذراعيها حولي وهي تهمس بصوت خفيض "يا لفتاتي المسكينة.."  
 أفرغتُ حزني دون تحفظ ودموعي تتدافع وأنا أبكي بمرارة شديدة.. أنا عادة أخفي انفعالاتي وضعفي عن الآخرين، أشعر أن انفعالي بصمة ضعف في شخصيتي وأكرهه بشدة، لكنني اليوم لم أعبأ بكل ذلك وأنا أستكين بين ذراعي بسمة.. شعرت أنها تملك حناناً غير محدود أغدقته عليّ دون تحفظ.. لأول مرة أجدها تمد يد العون لي فيما العكس هو ما اعتدناه منذ قدمنا لهذا الكويكب.. شعرت أنني فتاة صغيرة تبحث عن حنان وتعويض لآلام صفعتها دون إنذار.. ولم أعهد في نفسي كل هذا الضعف الذي رأيته اليوم.. لابد أنني سأكره نفسي بشدة في الصباح.. لكن هذا لم يعد مهماً.. لاشيء يهم بعد الآن..

\*\*\*\*\*

تظاهرت بالنوم فور عودتي للمخبأ.. ربما هرباً من تعليق قد يرميه أدهم عليّ، خاصة مع جفوني المتورمة ووجهي المزري.. ولا أظنه منظرًا محبباً أبداً..  
 لكن أدهم لم يعلق بكلمة واكتفى برمي بعض النظرات القلقة الصامتة تجاهي.. وبعد مرور وقت على انفرادي، سمعت أدهم يسأل بسمة بصوت خافت "أتظنين أنها ستغدو أفضل حالاً في الصباح؟"  
 قالت بسمة بقلق "هذا يعتمد على مقدار حزنها.. لكنني أخشى عليها من هذا الانفعال.. لقد سبق أن أغمي عليها بسبب الومضات المؤلمة.. ألن يضرها انفعال كهذا؟"  
 تجاهلت حوارهما رغم أنه يخصني.. لكنني لم أعد أعبأ بشيء.. سمعت صوت بسمة يتهدج وهي تقول "المسكين.. لم يرحمهم رغم أنهم ظلّموا منذ البدء.. والآن اغتالوا ما بقي من عمره دون سبب.."  
 قال أدهم متنهداً "هذا هو المصير الذي رسموه لنا منذ البدء بإحضارنا إلى هذا الكويكب.."

يبدو أن انفعالاً ممزوجاً بقلق شديد ارتسم على ملامح بسمة، إذ علق أدهم بعد لحظة صمت "أنادمة أنت على مجيئك معنا؟"

قالت بسرعة "ما كنت لأبقى وحدي في المساكن بعد رحيلكم.. لقد كتب علينا القدر أن نجتمع منذ استيقاظنا في السفينة، وهذا لا يمكن أن يكون إلا خيراً لنا.." سادهما الصمت التام بعد هذه الجملة.. ولم ألبث بعدها أن غرقت في النوم هرباً من هذا اليوم الذي حمل لنا شؤماً منذ بدايته.. وانتظاراً ليوم جديد أملاً في ما قد يجلبه معه لنا..

\*\*\*\*\*

مرت علينا أيام طويلة قضيناها بلا هدف محدد.. يخرج أحدنا لتوفير الطعام الذي لا يتغير في كل مرة، بينما الآخرون ينشغلون بجولات مراقبة في المنطقة المحيطة بنا خوفاً من هجوم قريب.. وبالطبع تخلينا عن فكرة إنقاذ عم أمجد فنحن لا نعلم موقعه ولا من هو بالضبط..

كنت أستغل الجولات تلك في الغرق بأفكاري بعيداً عن إلحاح بسمة التي يبدو أنها أقسمت ألا تتركني وحيدة لثوانٍ.. يبدو أن هذا الإزعاج هو وسيلتها للتعبير عن الاهتمام بي.. لكن كيف أقنعها بالعكس؟..

لذلك لا تستغربوا شعوري بالراحة فور حصولي على بعض الهدوء والوحدة أثناء تجوالي.. كنت أعود لأفكاري لذلك اليوم.. أحاول تفسير كل ما حدث وكل ما رأيته.. أحاول معرفة أكان أمجد يستحق ما جرى له؟ أي قسوة تحلى بها أولئك الحراس في تلك اللحظة؟ أم أنهم كانوا مقتنعين أنه مجرم خطر يحاول الفرار من عقابه؟..

حاولت أيضاً ترجمة كل الأحاسيس التي مررت بها وأنا أراه يهوي والدماء تتناثر من صدره لتغرق الصخور القريبة وتسيل على الأرض بلا انقطاع.. كيف لحادث بهذه القسوة أن ينبئني بأنني أحمل حباً لذلك الرجل؟ لطالما صدته.. ولطالما رفضت فكرة الحب ورفضت الاقتناع بها.. لطالما أقنعت نفسي أنني لا أحمل نحوه أي مشاعر خاصة.. فكيف تفجرت مشاعري مع ذلك المنظر؟ كيف استطاع قلبي إقناعي بأنني أحبه ولا أحتمل فراقه؟.. سؤال أعجز عن إجابته.. بل ما فائدة تلك الإجابة وقد غاب صاحب الحب الذي يشغل تفكيري ومشاعري الآن؟.. تنهدت بمرارة وعدت لدوامة التفكير من جديد دون ملل..

بعد تلك الأيام، بحثت عن حقيقتي التي تحوي عدتي القليلة.. بحثت وبحثت في الكهف كله دون فائدة.. يبدو أنني أضعتها.. أم أنني نسيتها في المخبأ الآخر؟ نظرت خلفي لبسمة النائمة بوداعة حيث

جلست أنا أراقب قرب البوابة.. بينما خرج أدهم في هذه الليلة للمراقبة كما صار يفعل مؤخراً.. هل عليّ انتظاره؟ عقدت العزم وغادرت المخبأ وأنا أشعر أن بسمة ستكون بخير.. لا يمكن أن يهاجمنا الحراس في تلك اللحظة فالمخبأ آمن تماماً..

سرت بأسرع ما أستطيع عائدة لمخبئنا السابق، وهناك دلفته دون حذر وأنا أستمع للصمت المسيطر على الأرجاء.. لم ألقأ لإنارة المكان قبل دخولي خوفاً من أن يرى نوره من على مبعدة.. لكن بعد خطوات قليلة قادتني للداخل، انتبهت لذلك الشبح الأسود الذي يحتل المخبأ على مبعدة مني.. توتر جسدي وحبست أنفاسي وكأني أخشى أن يسمعها، ثم ولّيت الأدبار محاولة الهرب قبل أن يقبض عليّ.. لم يكن ذلك أدهم فهو أطول قامته، وبغياض أمجد فإن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون هنا هو أحد الحراس..

انتبه الحارس لي عند دخولي، ووجدته على إثري فور محاولتي الهرب.. وبخطوات واسعة كان يقبض عليّ ويقيّد يديّ بقوة شديدة.. شتمت بحنق وأنا أركله بكل قوتي في ساقه.. فسمعته يتأوه بقوة قبل أن يهتف "أهذه أنت حمراء؟"

بوغت بالصوت الذي لم أتوقع سماعه، فقلت بدهشة "وليد؟"

أضاء وليد مصباحه موجهاً إياه نحوي، فقلت بغضب والنور يعشني عيني "أبعد عني هذا النور وإلا حطمته الآن.."

أبعد وليد النور عن وجهي وهو ينير وجهه لأراه بوضوح مغمماً "مازلت حمراء كعادتك.."

تساءلت مقطبة "ماذا تعني بذلك؟"

لم تجاوبني إلا ابتسامة صغيرة منه.. فقلت بحدة "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ألم تكف وشايتك عنا؟ ألا يكفي ما خسرناه بسببك؟"

قال وليد بدهشة "أي وشاية؟ أنا لم أشي بأي شيء عنكم؟"

قلت بغضب "كاذب.. لقد فعلت.. لابد أنك فعلت.. وإلا لماذا فشلنا في إنقاذ....."

صمتُ بمضض وشفطاي تعجزان عن نطق اسم أمجد، حتى لو كان هذا لذكر عمه.. بينما قال وليد

عاقداً حاجبيه "أنا لم أنقل أي شيء عنكم للإدارة لو كان هذا ما ظننتموه.. أترينني بهذه الخسة

لأفعل هذا لمن أنقذ حياتي؟"

قلت بجفاء "لست أعرفك جيداً حقاً"

فقال هازأً رأسه "أؤكد لك أنني لم أتفوه بأي كلمة عنكم.. رغم الاستجواب الذي خضعت له من

المسؤولين لمعرفة كيفية عودتي بجراح كهذه، إلا أنني لم أذكركم البتة"

تساءلت مقطبة "إذن كيف صدقوك؟"

أجاب بسرعة "كل ما قلته أنني فقدت الوعي ولم أستيقظ إلا لأجد نفسي قرب المباني الإدارية، وأجهل هوية من عاونني على العودة.. ويبدو أنهم بعد تحقيق طويل اقتنعوا بقولي.."

صمت بعد أن اقتنعت شيئاً ما بحديثه.. ونظرت له ملياً للمرة الأولى.. كان يبدو أفضل حالاً من ذلك اليوم الذي رأيته به آخر مرة.. كم مرّ علينا منذ افترقنا؟ لم أعد اذكر فقد اختلطت الأيام ببعضها في هذا الكويكب.. سألته بعد فترة صمت "كيف هي جراحك؟"

أجاب "بخير حال.. لقد تلقيت العناية المناسبة فور عودتي للإدارة.."

فقلت وقد تذكرت أمراً "كيف استدلت على هذا المخبأ؟ أم أنها ضربة حظ؟"

أجاب هازئاً كتفيه "لدي مصادري.."

كان جواباً غير مقنع، لكن لست أدري لم عزفت عن سؤاله عن تفسير ما قاله.. بينما سألتني باهتمام "يبدو أنكم قد غادرت هذا المخبأ.. فأين التجأتم؟ وأين البقية؟"

قطبت قائلة "أتظن أنك ستحصل على جواب لهذه الأسئلة؟ نحن لم نضعك في خانة الأصدقاء بعد لو لاحظت هذا.."

ثم أضفت بصرامة "وما الذي جاء بك إلى هنا؟ ما الذي تنتوي فعله وعم تبحث؟ أخبرناك أن تبتعد عنا، ولو رآك أدهم لما تورع عن إصابتك من جديد ولن يرحمك هذه المرة.."

غمغم وليد "صديقكم الشرس ذاك؟ إنه عنيف حقاً بدون منطق"

قلت بحدة "المنطق هو أن نحاول حماية أنفسنا من الخيانة.. أم أنك لا توافق على ذلك؟"

ابتسم وليد محاولاً تهدئة حوارنا وهو يقول "لا تقلقي.. أنا لن أتسبب في أذيتكم أبداً.. لست ندلاً جاحداً للجميل لهذه الدرجة.. أردت فقط أن أطمئن عليكم وأنفقد أحوالكم.."

أيضاً لم يقنعني هذا الجواب.. رأيته يبتعد نحو المخرج فسألته "إلى أين؟"

أجابني "لأعود لعملي.. لقد اقتطعت بعض الوقت من عملي لأبحث عنكم وأطمئن عليكم، والآن عليّ العودة سريعاً قبل أن ينتبه شخص لغيابي وأثير تساؤلات أنا بغنى عنها.."

راقبته وهو يبتعد وأنا بحيرة من هذه الزيارة الغريبة.. ثم سمعته يقول قبل أن يبتعد "على فكرة، لقد التقيت رفيقك وهو سيعود قريباً فلا تقلقي عليه.."

وابتعد قبل أن أجد الفرصة لأسأله.. هل التقى أدهم أثناء قدومه؟ هل كان أدهم هو من دله على هذا المخبأ ليعده عن مخبئنا الجديد؟.. ألغاز جديدة يطرحها وليد بزيارته القصيرة المفاجئة.. فمتى ستتكشف هذه الألغاز يا ترى؟..

\*\*\*\*\*



عندما عدت للمخبأ وجدت أدهم يشتعل غيظاً ويكاد يأكل نفسه بانتظاري، بينما جلست بسمه في جانب المكان بعينين متسعيتين قلقاً وخوفاً.. وفور عودتي صاح بي بصوته الجهوري الأجنس "أين اختفيت أيتها الحمقاء؟ لماذا تركت المخبأ خالياً خاصة أن بسمه كانت وحيدة ونائمة؟" قلت دون أن أظهر اهتماماً بغضبه "هل حدث شيء أثناء غيابي؟ أشك في ذلك فقد غبت لفترة قصيرة فقط"

قال أدهم بحلق "وهل تنتظرين أن يحدث شيء؟" قلت بحدة بدوري "وماذا عنك؟ لماذا أخبرت وليد عن مخبأنا القديم؟ ماذا لو دلّ بقية الحراس إليه؟" صاح أدهم "عم تتحدثين؟ من وليد هذا؟"

قلت مقطبة "الحارس الذي أنقذته بعدما رميته أنت من فوق الجرف.. هل نسيت بهذه السرعة؟" أجاب أدهم بغيظ "أنا لم أره منذ ذلك اليوم.. لكن ما شأن ذاك بحديثنا هذا؟ أنت أهملت واجباتك كثيراً.. حتى متى ستظلين ساهمة غائبة الفكر؟ كيفيك ما مضى من....."

ضاع فكري وهو معلق بأول جملة سمعتها من أدهم.. هو لم يرَ وليد الليلة؟ إذن من دله على المخبأ القديم؟ وأي رفيق كان يقصد بحديثه قبل أن يغادر؟ ربا.. لا يمكن.. أكان يعني أمجد؟.. نفضت الفكرة من رأسي بقوة قبل أن تكتمل.. لن أعود لهذا الألم من جديد.. لن أتوهم وجوده لأصدم مرة أخرى برحيله.. كيفيني كل ما قاسيته في الأيام التي مضت.. لم يخفت حزني لكني واريته في أدراج عقلي وغلفته بالنسيان.. فهذا أفضل لي وليرتاح رفاقي من همّي..

سمعت أدهم يقول وهو يجذبني من ذراعي ليلفت انتباهي "حمراء.. ما بك؟ أنت غير طبيعية البتة.. كلنا حزناً على موت أمجد، لكنك وحدك من غرق في الحزن والذهول.. لست أنت حمراء التي تمتليء عزيمة ولا تجعل أي أمر مهما كانت قسوته أن يكسر روحها القوية.. فما الذي حدث لك؟" زفرت وقد ساءني ما أصبحا يريانني عليه، ثم شددت جسدي وأنا أجذب ذراعي قائلة بهدوء "لا تقلق.. لم يتغير شيء.. أنا كما عهدتني دائماً.."

نظر أدهم لي بدهشة لتغيري السريع، ثم علت ابتسامة جانبية شفتيه وهو يقول "جيد.. هكذا يجب أن تكوني.. قوية كعادتك.."

ابتسمت بدوري ابتسامة باهتة، فقال بجدية "أخبريني ما الذي قادك للمخبأ القديم في هذا الوقت ولم تتمكني من انتظار عودتي أو انتظار الصباح.."

هزرت كتفي مجيبة "نسيت حقيبتني هناك.. وخشيت أن يعثر عليها الحراس ويعلموا أننا كنا هناك.."

فقال وهو يبتعد "لا تكرريها مرة أخرى.. أفهمت؟"

لم أعلق على قوله.. يبدو أن أدهم قرر اتخاذ منصب القائد لمجموعتنا الصغيرة بعد غياب أمجد، ولم أعترض فهذا الترتيب يناسبني أكثر..

نظرت لبسمة التي كانت تستمع لنا من موقعها بصمت وترقب وانفعال لا بأس به يغزو ملامحها.. فتركت أدهم ليراقب المدخل واقتربت منها قائلة "هل خفت أثناء غيابي يا بسمة؟ أنا أسفة.. لم أرد إزعاجك وظننت أنني سأعود بسرعة قبل استيقاظك.."

هزت بسمة رأسها نافية ذلك، ثم قالت بتساؤل متعجب "ما حكاية وليد؟ هل رأيته اليوم؟ كيف استدلل على موقعنا؟"

حكيت لها ما دار بيننا وذلك الحوار العجيب الذي تبادلناه دون أن أفهم معناه تماماً.. كان تعجبي يزداد وأنا أتذكر تفاصيل الحوار وما قيل فيه، ولما انتهيت قالت بسمة بلهفة "من عنى بقوله ذاك؟ أتظنين أنه أمجد؟"

قلت نافية بسرعة "لا يمكن.. أمجد مات.. رأيت ذلك بعيني، وأدهم يؤكد ذلك.. ربما يعني شخصاً آخر" هتفت بسمة "لا يمكن أن يعني أي شخص آخر.. لابد أن يكون أمجد.."

ونهضت بسرعة قائلة "سأخبر أدهم.."

لم أعلق وإن غرقت في تفكير عميق وضيق يكتنفني.. لا أريدهم أن يعيدوني لمستنقع الأمل والترقب.. نعم هو مستنقع إن خضته لن أفيق قبل أن أجد قدمي قد غاصتا في وحله وما عدت أقدر على الفرار.. هو مستنقع لن آخذ من الخوض فيه إلا الندم والعجز..

ناداني أدهم بعد حوار قصير مع بسمة، فنهضت من موقعي متأففة وأنا أتقدم تجاههما.. سيكون علي إقناعهما بمنطقي قبل أن يفلحا بإقناعي..

\*\*\*\*\*